فتأتيه الإجابة عندها طالبة العتق من رِقِّ الطعام: لا والله يا أستاذنا، إحنا لسَّه واكلين من ساعة.

كانت ديكتاتورية الرجل في إطعام الطعام لا تُوصف.

ديكتاتورية ما أحلاها!

معـارك مـولانا

«وسيبقىٰ في كل عصر، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»

ليست هذه معارك بالمعنىٰ الذي قد يتبادر إلىٰ ذهن القارئ الكريم، إنما هي خلافات فكرية، ومساجلات حياتية، اختلفت فيها وجهات النظر، كان يظن كل طرف من الأطراف أنه علىٰ صواب.

خلافات رأيتها جديرة بالعرض والتسجيل، ليس فقط لأنها تُظهر روحه الوثَّابة، وهمته العالية، وشجاعته الصادمة أحيانًا؛ لكنها تنقل جانبًا من حركة الحياة الفكرية والعلمية في عالمنا، كما تُقدِّم صورة حية لأدب الاختلاف بين النخبة الحقيقية الجديرة بالاحترام، وهي القيمة التي افتقدناها بعد حالة الانفلات الأخلاقي، وليس منطقيًا أن أذكر جانبًا من حياة الرجل، وأُغفل جانبًا آخر..

فسنرىٰ الرجل هنا مغاضبًا، كما رأيناه راضيًا..

***

وُلد الفتىٰ عويس معتدًا بنفسه بدرجة كبيرة، وحدَّد هدفه في الحياة باكرًا..

قرر أن يكون له شأن في معتركها، حتىٰ إنه وهو تلميذ صغير بالمعهد الديني الأزهري جلس في مقعد واحد مع زميل له يكبره

بسنوات بعد تكرر رسوبه، فنظر إليه زميله بحنق، وسأله مستنكرًا: ما الذي أجلسك بجانبي وأنت في نصف قامتي؟!

ردَّ عليه بسرعة بديهة: خيبتُك الثقيلةُ هي التي أجلستني بجانبك، فلو اجتهدت في دراستك ونجحت لما جلست هنا!

عندها غضب التلميذ من زميله (المغرور) وهمَّ بضربه لولا تدخل المدرس (محمد أبو جازية) الذي فضَّ اشتباكا محتملا، ثم سمع الصغير عبدالحليم وهو يتوعد زميله قائلا: والله لأنجحن بالمجموع الذي أريد، ولأدخلن الكلية التي أحبها، وسأحصل على الماجستير والدكتوراه بإذن الله ثم باجتهادي..

دهشَ المدرس من كلام الصغير، وقال له: لم الحَلِفُ يا عبدالحليم؟! اجتهد ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.. ولكن لا تُقسم.

ابتسم الصغير ابتسامة الواثق، وقال لأستاذه: سأفعل بأمر الله ولا أحنث.

ومرت الأيام والسنوات، وكان للصغير ما أراد.. وامتد العمر بالأستاذ ليرى تلميذه علمًا من الأعلام ملء السمع والبصر، فكان يستمع إليه في المذياع ويشتري الصحف ليطالع مقالاته، وكان التلميذ يبر أستاذه برّا منقطع النظير ويذكر له فضله.. حاضرًا وغائبًا.

وقُدِّر لي أن ألتقي أحد أساتذته في بيته منذ سنوات، وللحق فقد احتفى به مولانا أيَّمَا احتفاء، حتى إن الرجل قد استشعر كثير حرجٍ لإطراء تلميذه وعبارات الشكر التي لم تنقطع.

***

وحدث أن أحد مشايخ المعهد الأزهري- واسمه الشيخ عبدالفتاح علم- تكلم في ندوةٍ عامةٍ للطلاب بالمعهد، فصبَّ جامّ غضبه عليهم، مطالبًا إياهم أن ينهضوا بأنفسهم حتى يكونوا عوامل بناء وتقدم في مجتمعاتهم، بيد أن هذا الكلام لم يكن الشاب عبد الحليم ليمرره دون أن يعلِّق عليه، فطلب التعليق بعد انتهاء الشيخ من كلمته فأُذن له، فكان مما قال: «إن على الأساتذة أيضًا أن يقوموا بدورهم تجاه الطلاب وأن ينهضوا بأنفسهم أولا، فإن القاعدة إذا صلحت صلحت المنظومة كلها»، فهشَّ الأستاذ لكلام التلميذ، وطلب منه أن ينتظره عقب الندوة، وعندها طلب منه زيارته في بيته، واكتسب التلميذ شعاعًا جديدًا ينير حياته العلمية والعملية.

ويبدو أن تلك الروح النقدية الجموح قرَّبته من الأستاذ محمد جلال كشك الكاتب الشجاع والفيلسوف صاحب المؤلفات العديدة مثل: (ودَخَلَتْ الخيلُ الأزهر) و(كلمتي للمغفلين)، و(ثورة يوليو الأمريكية) ، فقد كتب أثناء دراسته أو عقب تخرُّجه بقليل مقالا يستدرك فيه على شيء كتبه كشك في إحدى المجلات، فوقع الاستدراك من الرجل موقعا حَسَنًا رغم النقد الموجه له، وأخذ يسأل عن هذا الكاتب المجهول دون نتيجة، حتى جاء يوم المواجهة في مكانٍ ما، فبادره الشاب بالتحية وشرع في تعريفه بنفسه:

- أنا اسمي عبدالحليم عويس.

- الاسم ده مش غريب عليَّ!

ابتسم الشاب الصغير ابتسامته الساخرة المعتادة مع هزِّ رأسه:

- أنا اللي كتبت مقال للرد علىٰ مقالكم

تظاهر كشك بالغضب وهتف قائلا:

- وتكون مين إنت علشان ترد علىٰ مقالي؟!

- عبدٌ من عباد الله، وتلميذ من تلاميذك، والعلم رَحِمٌ بين أهله.

أُعجب كشك بمنطق الشاب الصغير فقرَّبه منه وأحبَّه، حتىٰ إنه من أوفده إلىٰ الكويت للعمل بها.. ودائمًا ما كان مولانا يذكره بقوله «العملاق محمد جلال كشك».

وأذكر أننا كنا في زيارة للكاتب أحمد رائف في مركز الزهراء للإعلام العربي، فطلب مولانا كمية كبيرة من كتب كشك التي نشرها المركز، وحملها الإنسان، ثم قمنا بتوزيعها علىٰ الأحباب، فقد كان حفيًا به وبذكره كثيرًا.

***

ومما يثير الضحك والأسىٰ معًا، أنه كان لمولانا جارٌ تولَّىٰ حقيبة وزارة التربية والتعليم في فترة من الفترات، وحدث أن أقامت الحكومة مهرجانًا رياضيًا، فما كان من الوزير الهُمام إلا أن تصابىٰ وارتدىٰ (الفانلة والشورت) لمؤازرة الطلاب في مهمتهم القومية، لكن ذلك لم يرُقْ لمولانا.

قابلَ الوزير مستهجنا فعلته وقال: لا أدري يا دكتور ماذا أضفتَ بخلعِ ملابسك واكتفائك منها بما يستر السوءة فقط؟!

هل بفعلتك هذه ستصل مصر إلىٰ قمة التقدم الحضاري؟!

وهل بخلع سِترك سنبلغ ما لم نبلغه بها؟!

استقيموا يرحمكم الله.

مع الدكتور القرضاوي...

كنا في ليلة باردة مُشتيةٍ عام 2005 م عندما جاء الدكتور ومعه كتاب (تاريخنا المفترىٰ عليه)، تلقيته بسؤال معتاد: كتاب جديد ده؟!

قال: آه، وللشيخ القرضاوي كمان.. بينقدني فيه

أنا في نفسي: أوبَّا! استرها يارب..

أخذت أقلِّب الكتاب، فاسترعىٰ انتباهي بعض الصفحات المطوية فإذا عبارات قد خطَّ مولانا تحتها خطًّا باللون الأحمر القاني، وقرأت من بينها عبارة يقول فيها الدكتور القرضاوي: "وكم كنتُ أحب أن يكون أخونا الدكتور عويس في هذه الموضوعات التاريخية الشائكة: قاضيا محايدًا، بدل أن يجعل من نفسه محاميًا متحمسًا للدفاع عن موكله حيال خصومه، وفي غمرة الحماس والاندفاع يفقد الموضوعية والحياد".

كلام شديد...

والإشكالية إذًا حول بني أمية وحُكْم معاوية- رضي الله عنه- لم يُمهلني كثيرًا من الوقت، وسرعان ما طلب بعض المصادر التاريخية وشرع في إملائي، وانتهىٰ من الرد ودفع به إلىٰ الأستاذ جمال سلطان لنشره في مجلة (المنار الجديد).

كانت الوشائج بينه وبين الشيخ القرضاوي قويةً جدًا، فلقد تشاركا في إنشاء دار النشر المعروفة (دار الصحوة) قبل أن يتفرقا بعد ذلك، فضلا عن كونهما من المحلة الكبرىٰ التي ينتمي إليها كثير من الرموز مثل الإمام الهيتمي، والأبشيهي، ومن المحدثين الشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد عبد العليم العدوي، وقبل هذا كان شيخهما محمد الغزالي همزة وصل بينهما.

وعندما مرض الدكتور عويس واشتد عليه المرض كان الشيخ القرضاوي من زوَّاره في بيته بـ(مدينة نصر)، فسُرَّ الرجل بهذه الزيارة أيَّمَا سرور واحتفىٰ بمقدم الشيخ احتفاءً تاريخيًا.

مع الدكتور جابر قميحة...

أما خصومته مع الدكتور جابر قميحة فقد سار بها الرُّكبان، لا سيما في رابطة الأدب الإسلامي، ففي أحد المؤتمرات التي نظمتها الرابطة حدث خلاف لم أحضره، ولكني رجعت إلىٰ الشاعر محمد فايد الذي كان شاهد عيانٍ علىٰ الحدَث؛ فكتبَ إليَّ ما نصُّه: " أثناء إحدىٰ جلسات مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة التي كان يديرها الدكتور عبد الحليم، وأثناء إلقاء الدكتور جابر قصيدته رأىٰ الدكتور عويس فيها تجاوزًا في حق البعض، وخروجًا علىٰ منهج الرابطة في عدم الخوض في الأمور السياسية، فانفعل الدكتور قميحة... ومضت عدة أعوام انقطع فيها الدكتور قميحة عن الرابطة، والنشر في مجلتها، وصارت قطيعة طويلة بين الرجلين حتىٰ جاء يوم الثالث من نوفمبر سنة 2010م، ودُعي الرجلان إلىٰ مناسبة تكريم العلَّامة الدكتور محمد

عمارة، وهناك لمح الدكتور عويس الدكتور قميحة قادمًا فأسرع إليه يغالب مرضه الشديد، وتلقَّاه بعبارات الاعتذار رغم إيمانه بأنه علىٰ صوابٍ في هذا الخلاف، فتعانقا في مشهد مهيب رقَّ له الحاضرون في القاعة حتىٰ دمعت أعين البعض ومنهم الصديق محمد الحداد الذي لم يتمالك نفسه من جلال الموقف.

رأىٰ الناس كلا الرجلين يعتذر إلىٰ الآخر، فلم يدروا أيهما أخطأ في حق الآخر، لكنه الأدب المتبادل بين العلماء!

مع الدكتور جعفر عبد السلام...

كما كانت له خصومة مع الدكتور جعفر عبدالسلام– الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية ونائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق–، ويبدو أن منافسةً محمومة بدأت بينهما بعد انتقال الرابطة من المغرب إلىٰ مصر أدَّت إلىٰ الاختلاف في وجهات النظر، حيث كان الدكتور عويس أسبق علاقة برابطة الجامعات عندما كانت في المغرب، بينما ظهر الدكتور جعفر في الصورة بعد ترشيح الدكتور عبد الفتاح الشيخ له بتولي الأمانة العامة، والحقيقة أن لائحة الرابطة تشترط أن يكون أمينها العام بدرجة نائب رئيس جامعة، وهو الشرط الذي يفتقده الدكتور عويس.

وربما شهد الخلاف تطورًا نوعيًا بعد عملي في الرابطة بترشيح من مولانا– كما ذكرتُ– مما جعل أحد الزملاء ينصحني بألا أجهر بعلاقتي بالدكتور عويس مكتفيًا بأن تكون سرية بعيدة عن علم الدكتور جعفر حتىٰ لا يغضب الأخير، فما كان مني إلا أن دخلتُ

فأبلغتُهُ سلامًا خاصًا من الدكتور عويس الذي لم يَجُل بخاطره أن يُرسل سلامًا إلىٰ الرجل من الأصل.

كان وَقْعُ السلام علىٰ الرجل غريبًا، فهذا أمر لم يحدث في سنوات القطيعة بينهما، ولذا كان لابد له من سؤالي: أين رأيته؟! قلت: في رابطة الأدب الإسلامي، طبعًا لم أقل إنني أَبِيتُ عنده بشكلٍ شبه يومي.

وهكذا أفصحت عن علاقتي بالرجل دون خجل، وحتىٰ لا أُتهم في قَابِل الأيام بالتدليس أو المواربة، وهو ما كان مثارَ إعجابٍ من الدكتور جعفر الذي أحبَّ صراحتي.. وكثيرًا ما كان يُحدِّث ندماءه عن هذه الصراحة التي تصل إلىٰ درجة التهور، بل إن نقاشًا في إطار العمل نشب بيننا، ففوجئت به يقول: والله يا أخي عنتريتك زي عنترية عبدالحليم عويس.

وشاء الله أن أكون سببًا في تلطيف الأمور بينهما ووَصْلِ بعضِ ما انقطع بعد ذلك، فيوم حضرا عقد زواجي بالبحيرة جلس كلٍ منهما في ناحية من المسجد بعد سلامٍ فاترٍ نوعًا ما، وألقىٰ كلٌ منهما كلمة في الحضور أشاد فيها بمناقبِ العبد لله، وكالَ كل منهما لىٰ إطراءً لم أعتده من أيهما لا سيما الدكتور جعفر الذي يرىٰ أن إطراء الموظفين فيه فسادهم.

ظللت بعدها أبلغ هذا سلامًا مُلفَّقا، وذاك سلامًا مزوَّرًا حتىٰ تقاربا بعد جفاءٍ، وذهب الدكتور عويس ليعزي الدكتور جعفر في وفاة زوجته، ومَرِضَ الأول فصحبت الثاني لعيادته بمستشفىٰ بضاحية مصر الجديدة..

وهكذا إلىٰ أن تصالحا بعد قطيعة عرفتها الأوساط العلمية زمنا..

معركته مع التدخين...

أما معركته هذه فمن نوع آخر، كان مولانا يكره التدخين والمدخِّنين بقدرٍ لا يتخيله أحد، كما كان يُفتي بحرمته، وقد حُكي لي أن أحد ولديه– وكان صغيرًا- أراد أن يخوض تجربة التدخين، فأصدر مولانا فرمانًا ساميًا يخيِّره بين الإقلاع عن هذا الأمر أو الحرمان من الميراث، وقال: إن هذا المال جمعتُهُ مِن حِلٍّ ولن يُنفقَ إلا في حِلٍّ..

وأذكر أنه رأىٰ حارس العقار الذي كان يقيم به في الهرم مدخنًا، فناداه قائلا: إما أن تتوب إلىٰ الله وتُقلع عن التدخين، وإلا فهناك مقاطعة اقتصادية كبيرة، نعم تأخذ أجر الحراسة ولكن لا تنتظر شيئًا آخر، وبالفعل أصدر الدكتور- رحمه الله- توجيهاته إلىٰ زوجته- رحمها الله- بألا تستعين هي الأخرىٰ بزوجة الحارس في الأعمال المنزلية، علىٰ أن تستجلب إحداهن من العمارات المجاورة عند الحاجة إليها.. وظلَّ هكذا علىٰ رأيه حتىٰ أقلع الرجل، إنْ مُضطرًا، وإنْ مُقتنعًا، أو حتىٰ متظاهرًا بهذا.

ومنذ سنوات كنَّا سويا في مؤتمر من المؤتمرات فإذا به يمرق كالسهم في اتجاه أحد الأساتذة بجامعة الأزهر- وكان يُدخِّن بين الجلستين- وقفت أترقب الموقف ولسان حالي يقول: استرها يارب..

كان الرجل مُسنًا محدودب الظهر تبدو عليه علامات الشيخوخة

كما تبدو علىٰ أسنانه آثار التدخين التي تراكمت لتمنح أسنانه طبقة كقطع الليل المظلم.. وقف مولانا يتحدث مع الرجل، وفهمتُ أنه لا تُوجد بينهما معرفة سابقة..

المهم أن الدكتور ظل يتحدث مع الرجل عن التدخين وآثاره الصحية السيئة وكذلك باعتبار التدخين تهمة تنقص من مروءة صاحبها.

وقف الرجل يستمع إلىٰ مولانا دون كلل أو ملل..وأنا أنتظر المواجهة بينهما.. وكانت المفاجأة أن الرجل ألقىٰ بسيجارته مكتفيًا بهز رأسه إقرارًا.. سلَّم عليه الدكتور بحرارة وانصرفنا..

ومرت نحو سنة فإذا بلقاء يجمع الرجلين في فاعلية من الفعاليات، فهرول الرجل إليه ليُذكِّره بنفسه مبشِّرًا إياه بأنه قد أقلع عن التدخين تمامًا منذ ألقىٰ السيجارة أمامه..

استطار مولانا فرحًا وأصرَّ علىٰ أن يدعو الرجل إلىٰ غداء فاخر– وتلك عادته– في أحد المطاعم الكبرىٰ غير أن الرجل اعتذر لارتباطه بدعوة مسبقة.

وقريب من ذلك أني صحبته مرة لصلاة الجمعة بأحد المساجد بمدينة نصر–و كان حينها قد وصل إلىٰ مرحلة متأخرة بعدما تآمر عليه مرض الكبد– وعقب خروجنا فوجئت به يشير إلىٰ أحد الواقفين ويطلب مني أن أصحبه إلىٰ حيث يقف، نظرت فرأيت الرجل يمسك سجادة الصلاة بيسراه، في يمينه سيجارة!

فهمت أنه سيحدثه في أمر التدخين، فرجوته ألا يفعل، فلم يكن

حينها يقوىٰ علىٰ مجرد الوقوف، ولكنه كان ديكتاتوريًا كعادته، فتلقَّىٰ الرجل المدخِّن من التقريع ما تنوء به شم الجبال وزاد الطين بلة أنه قدَّم نفسه مفتخرًا: فلان الفلاني أستاذ بجامعة الأزهر..

إلىٰ هذا الحد كره الرجل التدخين والمدخنين.

***

إجمالا.. فقد تركت شخصية الرجل المعتدة بذاتها والواثقة من حجتها أثرًا بليغًا في علاقاته بمن حوله، وربما تسببت في خصومات عِدّة، كما تركت بعض معاركه ومناوشاته ندوبًا في شبكة علاقاته الاجتماعية، لكنها في مجملها كانت ندوبًا حميدة سهلة الذوبان عند أول لقاء وفي أقرب مناسبة.

فما كان لقلبه الطيب وطبعه النبيل وروحه السمحة أن تسيطر عليه الخصومة أو يستبد به الشطط، ولمولانا في ذلك مواقف عديدة، تجلت فيها عذوبة نفسه ورقة فؤاده.

رحمك الله يا مولاي.

لم أر أصفىٰ منك قلبًا، ولا أنقىٰ منك سَرِيرَةً.